# شتاء قارس

أحمد طوسون



اللوحة للفنان: مجدي عبد العزيز

١٢٧

قصص

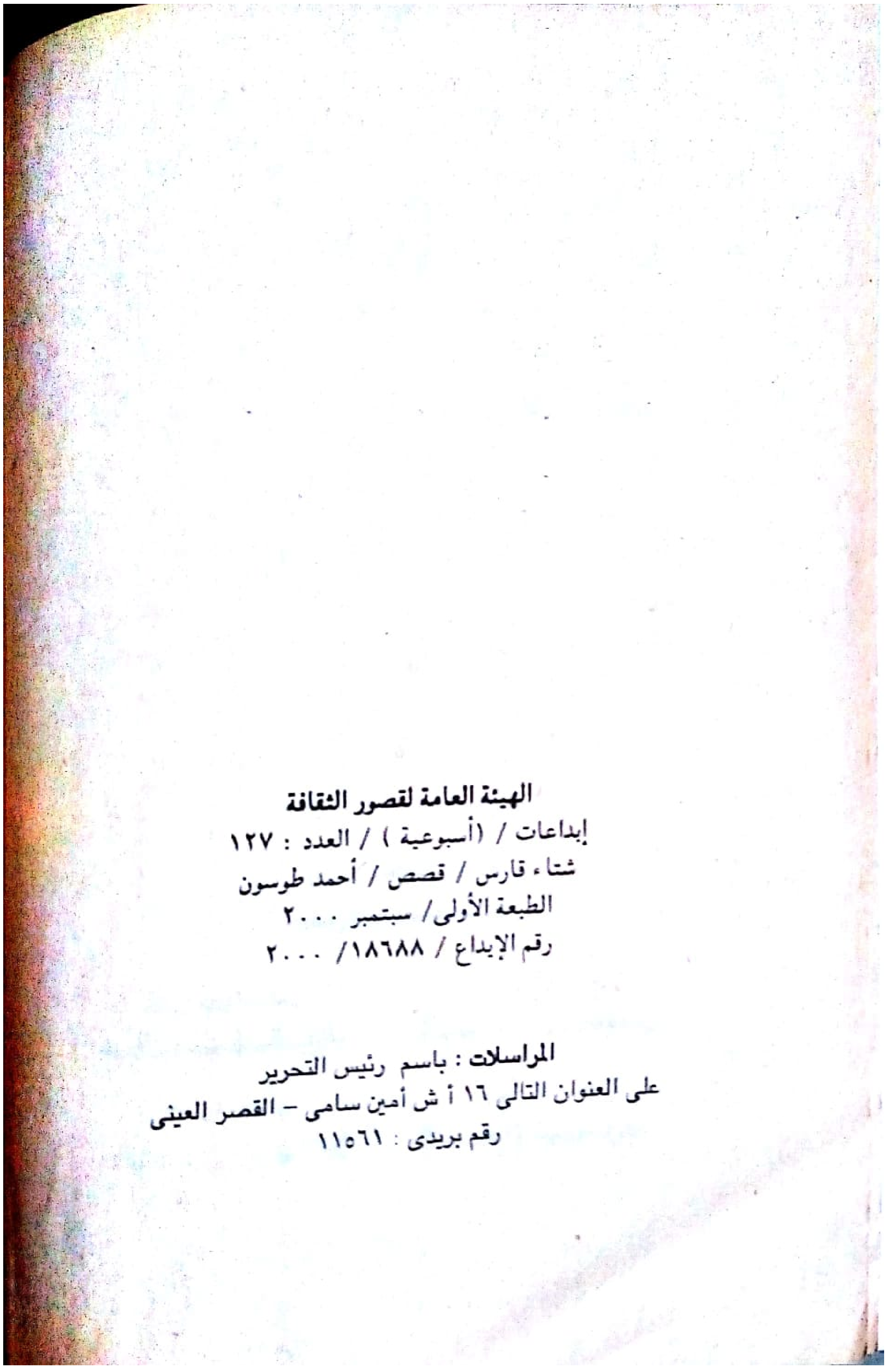



# شتاء قارس

قصص

أحمد طوسون





الهيئة العامة لقصور الثقافة
إبداعات / (أسبوعية ) / العدد : ١٢٧
شتاء قارس / قصص / أحمد طوسون
الطبعة الأولى/ سبتمبر ٢٠٠٠
رقم الإيداع / ١٨٦٨٨/ ٢٠٠٠

المراسلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

# إهداء خاص جداً

- الدكتور/ كمال الجوهرى (أستاذ القانون الجنائى بجامعة درنه )

قيمة لأشياء جميلة ندرت

- الأصدقاء

وحدهم يستطيعون إعادة البهجة

- زوجتى

. . . . . . . . . . . . .

**أحــــمد**

أيها الألم !

آه أيها الألم !

إن الزمن ليقتص الحياة

إنه العدو المجهول الذي يلتهم القلب

القلب الذي يعود لينمو وينتعش من الدماء التي نزفت فيه

« العدو »

شارل بودلير

# شتاء قارس

كنا عـائدين إلى البـيـوت نرتجف من الصـقـيع، مـررنا تحت شرفـتـهـا، ضـوت لمبـتـهـا الصـفـراء فى عـيوننـا فـأوجـعنا الوهـج، كعادتنا قلنا مسـاء الخيـر، وواصلنا سيـرنا، انحـرفنا يسـاراً مع نهاية العمارات الجديدة بحثاً عن بيوتنا التى اختبأت تحتها.

عند أول البيوت فارقنا أحدنا إلى داره وقال :

- تصبحون على خير .

تخطينا أكثر من بيت وتركنا آخـر، عند تقاطـع أزقـة ضـيـقـة افـتـرق كل منا إلى طريقه يؤنسـه دخـان أنفـاسـه الأبيض، قـال أحدنا قبل أن يتركنا:

- لم ترد تحيتنا

خبأنا أكفنا فى الجيوب وكنا نسمعهما:

- كعادتها منذ فترة

- لكننى لم أرها الليلة

وافترقنا فلم نعد نسمع بعضنا، وعند تقاطع الأزقة الضيقة تقابلنا فى الصباح، عند آخر البيوت اكتملنا، دلفنا ناحية العمارات الجديدة، سمعنا ضجيجاً لم نَعْتَدْه فى صباحاتنا الشتوية ورأينا - عند شرفتها - كلباً ينبح وأُناساً كثيرين يحومون حول البيت وعربة شرطة ترتكز بمؤخرتها عند الباب.

تأملنا كسل الصباحات على وجوهنا وفركنا أعيننا وقلنا: ماتت.



من بيوتنا اعتدنا رؤيتها قبل أن تفصلها عنا العمارات الجديدة، تجلس فوق كرسيها الخيزران فى جلباب بيتى وتلف رأسها بشال أسود ينتهى بشراشيب صغيرة، فى الشارع نرى أزهار حديقتنا تتفتح ونراها على كرسيها تتابع لعبنا بعيون دافئة، أول مرة نراها حسبناها سكنت حيّنا حديثاً واشترت البيت من أصحابه الذين لم يعتادوا فتح شرفتهم من قبل، أخبرتنا أمهاتنا أنها أول من سكنت المنطقة لكنها لم تكن تفتح

أبداً شرفتها، زوجها الله يرحمه كان يمنعها الخروج إلى الشارع أو رؤيته ولم يسمح لها أن تفتح بابها لأحد، حتى والدها حين أتى لزيارتها لم تفتح له قبل أن يعود زوجها من العمل، غضب عليها وأقسم ألا يزورها مرة أخرى ولم تفتح، قالت بعدها وهى تبكى : إن زوجها كان يأخذ معه المفاتيح.

★ ★★

حين مات زوجها لم يترك لها إلا بنتاً وحيدة، بعد أن تزوجت تركتها وعاشت مع زوجها، من ساعتها نراها كل يوم، بمجرد أن يفتح النهار بواباته تفتح شرفتها وتجلس على كرسيها الخيزران وتتابعنا ونحن نلعب أمام البيوت، وحين يطيح أحدنا بالكرة إلى شرفتها تزعق أمهاتنا فينا، فتعيد الكرة إلينا وتنهرهن وتقول:

- اتركوهم يلعبون

ولكن احرصوا ألا تطيحوا بالكرة ناحية أحواض الزهور.

★ ★ ★

كل جمعة اعتدنا ألا نراها ونرى شرفتها مغلقة فنعرف أن ابنتها عندها، فى هذا اليوم لا تفتح شرفتها أبداً حتى بعد أن

تتركها ابنتها وتعود إلى زوجها، تقول أمهاتنا إن ابنتها لا تبقى عندها كثيراً، زوجها لا يحب أن تتأخر عند أمها، مرت جمع كثيرة رأينا فيها الشرفة مفتوحة ورأيناها تجلس على كرسيها الخيزران. قالوا إن ابنتها سافرت إلى الخليج مع زوجها وتجلس تنتظر البوسطجى ليحمل إليها الخطابات.

وكنا نراه أول كل شـهـر يركب دراجـتـه ويقف بهـا تحت شرفتها، يفتح حقيبته الجلدية القديمة، يخرج خطابات كثيرة ويعطيها أحدها وحين لم يعد يمر عليها طلبت منا أن نسأل عنه فى البوسطة الجديدة.

رحنا ورجعنا إليها وقلنا إن الخطابات تأخذ زمناً طويلاً حتى تصل وإن خطابات كثيرة تضيع في الطريق وإن البوسطة لم تعد كما كانت زمان وأنه بمجرد أن يجد الخطابات سيأتى إليها.

★ ★ ★

كل صباح تنتظرنا بدوارق الماء - حتى عندما كبرنا وذهبنا إلى وظائفنا الحكومية، تناولها لنا لنسقى أحواض حديقتنا الصغيرة، كنا نقول لها:

- لا تتعبى نفسك

عمال الحى يقومون بريّها

وكانت تقول:

- لأجل خاطرى . . .

خذوا الدوارق واسقوها

العمال لن يهتموا بها مثلنا

وكنا نرى الأزهار تتفتح وتميل ناحية شرفتها كل صباح، وحين غابت عن شرفتها مرت أيام لم نر الأزهار تتفتح فيها، قمنا بزيارتها والسؤال عن صحتها عندما علمنا بمرضها وحين أخبرناها طلبت أن نحملها إلى كرسيها الخيزران وأعطتنا دوارق الماء لنسقى زهورها، وتعجبنا حين تفتحت الزهور ومالت ناحية شرفتها.

* * *

لم تعد تنتظر البوسطجى أو تسألنا عنه، وحين رأيناه فوق دراجته يقف تحت شرفتها ويفتح حقيبته الجلدية القديمة فرحنا، لكننا رأيناها ترفض أن تأخذ خطابها وحين أصر البوسطجى وضعته إلى جوارها فوق كرسيها الخيزران ورأيناها تمسح دموعاً سقطت من عينيها.

أعاد البوسطجى خطاباته إلى حقيبته وركب دراجته وسمعناها تنادى عليه مرة أخرى... وأعطته دورق الماء ليسقى به أزهارها.

* * *

حين سمعنا خشخشة التروس وتزييق الرفاعات ورأينا الجرافات من بعيد تعجبنا، قال أحدنا : يقولون إن الحى ينوى بناء عمارات سكنية فى المنطقة، ورأينا الجرافات تمد أسنانها وتلتهم أحواض الزهور بين فكيها، ورأيناها فى شرفتها تصرخ بأعلى صوتها وصرخاتها تضيع بين عواء الجرافات، ولأول مرة نراها تفتح باب بيتها وتلقى بنفسها فوق أحواض الزهور.

قالت الأمهات : لأول مرة تخرج من بيتها بعد وفاة زوجها، كانت تخاف أن يغضب عليها فى تربته، ورأينا عمال الحى يجرونها بعيداً عن الجرافات، أسرعنا ومنعناهم عنها وحملناها الى كرسيها الخيزران.

* * *

إرتفعت أعمدة الخراسانات حتى حجبت بيوتنا عنها ولم نعد نراها إلا فى طريقنا إلى العمل وعودتنا منه، نُلقى عليها تحية

الصباح فلا ترد علينا، وحين نعود نلقى عليها تحية المساء فلا ترد علينا، قلنا ربما تكون غـــاضـــبـــة منا منذ منعناها عن الجراقات، ذهبنا إليها فلم تكلمنا، حتى نظراتها الدافئة لم نعد نراها، كنا نرى عينيها متحجرتين لا تعبأ بتوسلاتنا ولا تعبأ بالعمارات الأسمنتية الجاثمة فوق بيوتنا، قال أحدنا : ربما تكون فقدت النطق، ومن يومها كنا نراها تحملق فى حواف جدران شرفتها وفى عينيها أسى عميق.

* * *

هرعنا إلى باب بيتها، تخطينا عربة الشرطة ودخلنا خلف الضابط والعسكريين، أعدنا فرك عيوننا وتعجبنا حين رأيناها ممددة فى شرفتها على الأرض بجوار كرسيها الخيزران وشالها الأسود مفتوحة العينين، وعند حواف جدرانها تنبت زهور لا عدد لها تتناثر بينها رسائل قديمة.

# التى تحبه ..

البنت التى أحبته تدق الباب

لا يعرفها

لكنها أحبته ببساطة كما نحب أشياءنا الأليفة، كما نحب أحلامنا الصغيرة وهى تكبر أمامنا. أحبته كما يحب أىٌ منا ولا يجد إجابة صحيحة لسؤال يبدأ بلماذا؟؟!

لم تكن تعرفه، فكرت أن ملامحه لن تكون عائقاً أمامها، لم تكن بحاجة إلى معرفة سماته الشخصية، الأشياء التى يحبها والأشياء التى لا يحبها، عما إذا كان شخصية عادية مكرورة أو مختلفة، لم تكن بحاجة لترهق نفسها بالتفكير فى أسئلة كثيرة تبدو غبية، تعرف أنه سيحبها دون تخطيط لذلك، دون مقاومة، باستسلام لقدر أسبق فى وجوده منهما.

أحبته هكذا . ...

وهى تسير فى الطريق الطويل الذى قطعته إلى هنا، أحست به كائنا مكتملاً.. تتشبعه.. تتنفسه، أحبته فى الطريق إلى محطة المترو وهى تطالع الوجوه المزدحمة وتعرف أنه ليس واحداً منها، وهى تتصفح المجلات والجرائد، وهى تعانق باقة الورود والبائع العجوز يطارد لهفتها ويضحك من خبراتها الصغيرة ويقول لها:

– أنت تحبين؟

تنتشى سعيدة، هذا الحب المقروء في عينيها ينجح في جعلها بلا وزن، تتخلص من أعباء الجاذبية وترفرف بجناحيها، أحست بكل الوجوه الأليفة تشاركها رقصتها.

هو لا يعرفها

لم يقابلها من قبل

لكنه يقف فى شرفته بالطابق الثانى يرنو إلى البعيد.. البعيد، ينتظر امرأة ما – لا يعرفها، لكنها ستأتى، كل الشواهد تؤكد ذلك، تعاقب الليل والنهار، الدقات الرتيبة لعقارب الزمن وهى تؤكد أن الغد آت، وجوه المارة فى الطرق المكان، ابتسامة البنت، بائعة الكتب وهى تتابعه بعينها.

أصبح يقينها أنه ينتظر امرأة ما وأنها ستأتى، لا محالة.. ستأتى.

هى أيضاً تنتظرها، ترسم ملامحها مع كل عابرة، تتلهف إلى معرفتها، غير معقول أن تكون مجرد سراب تراءى لهما.

كل هذا الوقت ينتظر

وينتظر

الشوارع لا تقدم له المعونة

كل هذا الوقت والوجوه والعيون وإطارات البنايات يحفظون وقفته هنا وانتظاره لها

كان لا يعرفها

لكنه استشعر ذلك الدبيب فى قلبه، تفحص الشارع الزحام، رأى البيوت تطل من نوافذها، الوجوه تتعرى من ملامحها، القلب الصغير ينتفض وينتفض.

لا يعرفها

لكنه أحس بها فى الزحام، أحس بجسده قطعاً من الثلج المجروش، فكر فيما لو كانت هى، أصابته حالة من العجز والاستحالة عن التفكير.

كل هذا الوقت ينتظرها، يعرف يقيناً أنها آتية لا محالة، لكنه لم يعرف ماذا عليه أن يفعل؟؟!

ماذا علينا أن نفعل حين نقابل أقدارنا؟!

كان واقفاً في شرفته يرنو إليها.. إليها ويعرف أنها هي، يحفظها عن ظهر قلب، يتفحصها، تتفحصه، الشارع الزحام أصبح خالياً، البنت بائعة الكتب تسمرت في مكانها.

هي الأخرى عرفتها، لكنها لم تعرف ماذا عليها أن تفعل؟ توترت قليلاً حاولت أن تمسك بابتسامتها لكنها هربت.

كانت دائماً تنظر إليه وتبتسم، لكنها عندما رأتها تسمرت .

لقد أتت

كانت واثقة من مجيئها، لكنها الآن خائفة

واجمة

هو يهرب منها ومن مقلتيه إلى بائعة الكتب، بائعة الكتب تهرب منها ومن مقلتيها إليه، هي تعبر نظراتهما وتمر، تقف أمام الباب، تنظر إليه - لآخر مرة قبل أن تدق بابه، يهرب بعينيه إلى بائعة الكتب، تهرب بعينيها إليه، يحاول العبث بأشياء غير موجودة.

البنت التي أحبته تدق الباب

دقة و دقة و دقة

يحس بكائن هلامى بشع ومرعب يفرش لزوجته عليه، فلا يستطيع الحركة، يقف مرتبكاً وحزيناً، يهرب بعينيه إلى بائعة الكتب

بائعة الكتب تحجرت، لا ترى أمامها سوى القادمة وهى تواصل الدق بثبات.

# نصوص قديمة جداً

## (١) أنـــا

نافذة

شيش قديم

خطوات متعثرة تحتك بأسفلت الشارع

يطل وجه آدم من خلف السحابات الرمادية، ينفخ فى وجهى غباراً سحرياً، تفتتن الصغيرات بوجه ليس لى.

وأنا.....

حين أطفئ سجارتى بأناملى المرتعشة وأصبح نصف جسد حى، تلسعنى النار ويلف وجهى دخان أبيض كثيف، مغمض العينين.. أسعل، لا يرأف لحالى بائع الكتب القديمة حين أشترى منه الجريدة المسائية وتتأذى المرأة التى تجاورنى فى سكنى والعجوز الذى يسكن فوق حجرتى وصاحبى الذى يحتسى قهوته

المرة وأمعائى الغليظة.

وأظل أبحث عن دواء القولون وآلام الظهر تعاودنى

أشعل سيجارة جديدة ولا أتوقف عن السعال، فتتأذى عيون

المدينة، ساعتها يتلبسنى جان أزرق وأصبح كائناً هلامياً بشعاً،

أحمل بين يدىّ الكرة الأرضية وأتضاءل...

أتضاءل إلى إليكترون صغير سقط عن مدار الجاذبية بعنف

.......

وأُغلق الكوة فى وجهى .

## (٢) كلب ميت

شارع تراب

صيف هجير

كـوخ بجـوار شـريط السكة الحـديد، كلب ينبح .. هـاوهو..

هاوهـو، تنخض البنات يجـرين، يلحـقن بآخـر عـربة فى القطار

المسافر والكلب يسابقهن بنباحه

شهر مرّ، سنة، سنتان

مـدارس كثيـرة على السكة الجديدة، طريق إسفلتى واسع،

مستشفى كبير، لمبات بيضاء وماء نظيف فى صنبور مياه.

دكان فيه كل شىء من إبرة الخياطة حتى الفول المدمس فى

علب صفيح

لم يعد أحد يركب القطار، ولا عاد القطار يمر من أمام الكوخ

ولا الكلب ينبح.

.... .... .... ....

شهر يمر، سنة، سنتان

ولا عاد هناك كوخ

ولكن

صيف هجير

ورائحة نتنة لعظام كلب ميت .

## (٢) طفل أزرق

أحياناً . . .

أعود طفلاً أزرق اللون، يصرخ لسبب مجهول، لا يسكته ثدى أمومى دافىء أو ترضية لعبة رخيصة الثمن أو رضعة صناعية.

ويظلون ....

يبحثون فى بنطلونه الجاف تماماً عن موضع البلل ويحتالون بإذابة قرص الأسبرين فى كوب الليمون المحبب إليه.

وبقسوة مريرة بطعم عود صبار ناشف ينغز الطبيب حقنة المخدر بجانب مؤخرته الأيمن، فيصمت طويلاً محملقاً إلى النجمة البعيدة

البعيدة

البعيـ .. دة عن يديه.

## (٤) يمامة

يمامة وذكر يمام

طوال النهار يبنيان عشاً

حينما غربت الشمس، يمامة وذكر يمام فوق شجرة سنط عجوز يغنيان، وطفل صغير على الرصيف المقابل يحمل بندقية رش جديدة ويتعلم الصيد وطفلة تُطيِّر طائرة ورقية من نافذة حجرتها.

أطلق طفل صغير طلقة رش وحيدة . . .

يمامة كانت تغنى سكتت عن الغناء . . .

وطائرة ورقية سقطت على الأرض . . .

وطفلة بكت .

## (٥) ليل

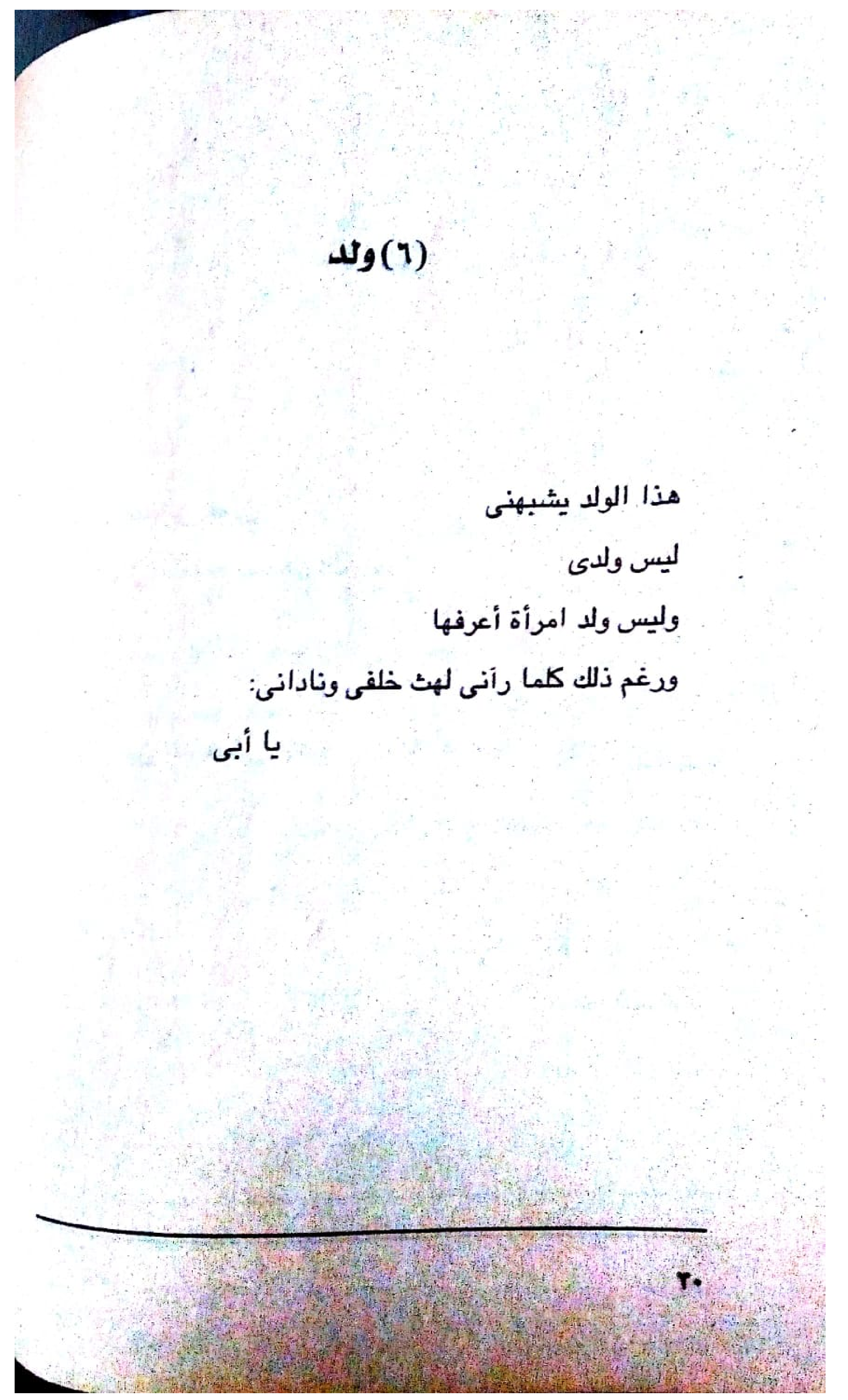
الليل ضبابى قمىء

صندوق القمامة بمدخل شارعنا ..

نظيف ..

وكبير ..

وخال من الباعوض والذباب وبقايا الأطعمة .



# (٦) ولد

هذا الولد يشبهنى

ليس ولدى

وليس ولد امرأة أعرفها

ورغم ذلك كلما رآنى لهث خلفى ونادانى:

يا أبى

## (٧) قرد

داخل القفص قرد

وخارج القفص قرد

والفاصل بينهما مجرد سلك حديدى شائك . . .

من جانب واحد فقط .

## (٨) مقصلة

خُيِّل إلىَّ ..

أن مقصلة كبيرة شيدت على الباب

حين تسأل أحدهم عنها ينكر رؤيتها . . .

وحين تسألنى أُنكر رؤيتها.

لكنها – دون شك – موجودة

أو

مجرد خُيِّل إلىَّ .

# اسـم

انتهى كل شىء وعدنا، عرف كل منا مكانه وجلس، آخر من جاء حمل معه أوراق الأسماء، أعطى كلا منا ورقته وجلس، لم تشغلنا الأوراق، ظلت أمامنا مطوية وبقيت معه ورقتان مطويتان على اسمين.

نظر إلينا وقال: تبقى ورقة لم يأخذها أحد

تسحبت الوجوه تبحث عن جواب، تسمرت عند كرسى خال لم يأت صاحبه، قال: هل يعرفه أحد؟

تساقطت شباك العنكبوت فوق وجوهنا ولم نتكلم .

قال: كان يجلس مكانك وأشار ناحية أحدنا، لفنا جميعاً بنظرته وبسلاسل من صمت وأشار: أو مكانك أو مكانك ...

كنا ننظر إلى المقعد الخالى ونسأل أنفسنا منذ متى غاب، لم

نفكر يوماً في غياب أحدنا، نجد مقاعد لكل منا، مقعد خال حول الدائرة يكفي حتى لا نسأل أنفسنا عن غياب أحد، طالما وجدت المقاعد لا مشكلة كلها تتشابه وإن اختلف مكانها حول الدائرة وليس مستغرباً أن تجد وجه جارك اليوم غير وجه جار الأمس، تمتم أحدنا دون أن يسمعه صاحب الورقتين أو ربما تظاهر بذلك إلا هو يحرص على نفس الكرسي.

قال: ثمانية أوراق ونحن سبعة ومقعد خالي، قال أحدنا: لابد أنه مات. لا يمنعه إلا الموت، تخيل كل منا وجه الموت، هل يمكن أن يشبه وجه أحدنا.

قام يصرخ فينا، أعرف أنه مات ونريد أن نرفع اسمه إلى كشوف الموتى ونرفع مقعده من طاولتنا وتصبح سبعة أماكن لسبعتنا.

فكرنا فيما تعنيه كشوف الموتى ولم نصل إلى تصور ما، ولم نجد مانعاً لأن يبقى المقعد خالياً بيننا ربما يعود صاحبه ذات يوم.

جمع أوراقنا بين يديه ظل يدور حولنا ومعه الورقات الثمان، قال أحدنا: ربما ضل طريقه إلينا وسيعود، قال ثائراً: أعرف أنه مات ولن يعود، سكت لحظة تفحص فيها ملامحنا الهشة وقال:

هل يعرف أحد اسمه؟

لم يجب أحد، كنا مشغولين بمتابعة الأوراق بين يديه، سمعنا أحدنا يتمتم: هل يجب علينا أن نحزن؟ قال متوسلاً : أرجوكم فكروا معى فى وسيلة.

ساد صمت طويل قطعه أحدنا مذعوراً: ماذا يعنى الموت، غشيتنا لزوجة، هرشنا أفكارنا، أمسك كلٌ كرسيه وتشبث بالطاولة، قال بهدوء حزين: فكروا معى أرجوكم.

تخلينا عن مقاعدنا وقمنا جميعاً، ظللنا ندور حول الدائرة ومقاعدنا الخالية، توقف أحدنا فأربك حركتنا وقال: أظن سمعت أحدنا يناديه.... صمتنا جميعاً وانتظرنا، ظل يحك رأسه ويردد، يناديه، يناديه.... (أبو على)

أسرع صاحب الأوراق وجلس مكانه، جلس كل منا على مقعد، ولم يصوب أحدنا نظره إليه، وضع أمامه الأوراق وفتحها...

لا يوجد (أبو على) فى الأوراق

قال الذى حاول التذكر، لكننى سمعتكم تنادونه (أبو على) أو (أبو عماد)، حاولنا أن نتذكر معه، لكننا لم نعتد أن ننادى أحداً باسمه، الأسماء بالأوراق والأوراق مطوية دائمة معه وكنا نظنه

الوحيد الذى يعرف أسماءنا.

نظر إلينا وتعجب، فحص الأوراق التى أمامه وقال: كل واحد يأخذ ورقته، لكننا لم نفتح أوراقنا، دائماً كانت مطوية، لم نعتن كثيراً بأسمائنا، قال: وأنا لم أفتح ورقتى مثلكم، أى ورقة كانت تكفينا للدخول والخروج من البوابات.

غطتنا الدهشة وساد صمت طويل، حتى حارس البوابات لم يكن يفتح أوراقنا، مطوية دائماً الأوراق، همس أحدنا: لكنه فتحها أمامنا منذ قليل، همس آخر: وما فائدتها فى يد واحدة، ثمانية أوراق تحمل أية أسماء، قطع صوته همسنا: عندى فكرة إن وافقتمونى عليها، كلنا وافقنا.

قال: نأخذ ورقة من الأوراق الثمان ونعطيها لكشوف الموتى ولن نوزع الأوراق بيننا بعد اليوم، سمعنا تمتمات كثيرة، ربما كانت تحمل اسمى، أخاف من كشوف الموتى، ربما تحمل اسم أى واحد منا، سمعناه يقول : لقد وافقتم.

كلما عدنا وجلسنا إلى مقاعدنا مسحنا المكان بنظراتنا، نطيل النظر إلى خيوط العنكبوت على وجوهنا ويسود صمت أشبه بالحزن، كان الوحيد الذى يُخرج الأوراق ويعبث بها ثم يضعها فى جيبه ويقول: كان أحسن حل توصلنا إليه، لم نجد

بعدها مقعداً خالياً، أصر أحدنا أن الغائب (أبو عماد)، شك آخر أننا نقصنا عن ذى قبل، قالها ثالث صراحة، أظننا أقل كثيراً من عددنا، سرت بيننا رعشة وهو يقول: من يومها لم ينقص أحد، صاح أحدنا مذعوراً: لقد أصبحنا خمسة فقط، أحصينا عددنا جيداً، خمسة فقط، قال: لقد كنا دائماً خمسة، تمتم أحدنا: كنا ثمانية، هرشنا ذاكرتنا، قال : دائماً ذاكرتكم ضعيفة، تذكرون حين قال إنه سمعكم تنادونه (أبو على)، لم نتذكر أننا نادينا أحداً باسمه، قلنا فى أنفسنا طالما كنا موجودين فلم ينقص أحد، قال أحدنا: ولكن فى مرة سابقة وجدنا مقعداً خالياً وورقة زائدة، عبث فى الأوراق، فتحها وقلبها جيداً، قال: ربما لم تكن هناك مرة سابقة.

انكفأنا على الطاولة التى أمامنا ومسحنا لزوجتنا، خمسة مقاعد لخمستنا، ظل واحد يرددها ويحرص أن يسمعه الأخرون، إلا هو كان يحرص أن يقف منتصباً أمام كرسيه ويردد مستمتعاً: ربما.... ربما.... ربما .

بعدها كل يوم نحرص أن نكون خمسة، كلما جلسنا إلى مقاعدنا أحصينا عددنا جيداً ورددنا خمسة مقاعد لخمستنا، حين وجدنا العدد أربعة أحسسنا بالخطر، قال: إن الدائرة

أصبحت كبيرة عليكم ولم يعد لديكم القدرة على معرفة عددكم وأنتم تجلسون حولها، قال آخر: كنا نحصى عددنا على نفس الدائرة من قبل، قال : ربما كنا نخطئ دائماً فى العدد، قال : أحدنا: نريد أوراقنا معنا، لن تنفعنا إلا أوراقنا، صمت قليلاً وقال: ولكنكم لا تعرفون أسماءكم، تمتم آخر: نريد أية أوراق، قال: ربما أخذتم ورقتى، لكنك مثلنا لا تعرف ورقتك، أى ورقة تصلح للدخول والخروج من البوابات، صحنا جميعاً: سنأخذ أوراقنا، سنأخذ أية أوراق، قال يطمئننا: رغم أننا اتفقنا سابقاً، إلا أننى سأعطيكم أوراقكم المرة القادمة، فكرنا، قال أحدنا: ولِمَ لا نأخذها الآن، لقد قلت من قبل إنه لم توجد مرات سابقة، قال: ستأخذونها المرة القادمة حين أحضرها معى، دائماً كانت معه الأوراق، نظرنا إلى بعضنا البعض، بدت الحيرة على وجوهنا، تهتكت خيوط العنكبوت فوق ملامحنا فبانت جرداء، قلت : ربما لا تكون هناك مرة قادمة.

قال آخر: لا نملك إلا انتظار الغد.

## نشرة أخبار التاسعة

**الجمعة ١٥ ديسمبر . .**

المباراة بدأت، حين ناديت على أمى تذكرت أنها قبلتنى وخرجت منذ الصباح لزيارة مقابر العائلة.

الحكم كعادته يتحيز للفريق المنافس والمعلق التليفزيونى يثرثر عن النجمة التي حضرت إلى الملعب لمشاهدة المباراة، لوحة الإعلانات احتلت نصف الشاشة فلم أستطع متابعة الكرة، استجمعت قواى وقذفت بالونة ابنة أختى الكبرى - التى تركتنى لتلعب وحدها .

انفجرت البالونة قبل أن تصل إلى شاشة العرض، وفزع الهرُّ النائم بين قدمى.

★★★

بين الشوطين قطعت لوحة أهم الأنباء الفقرة الإعلانية، وكنت انتهيت من صنع كوب الشاى الأسود واستلقيت على الأريكة الخشبية، كعادته وجه المذيعة المبتسم، أزاحت الذبابة من على أرنبة أنفها وقرأت الخبر (فى نبأ عاجل ذكر راديو..)، كانت القناة الثانية تذيع الخبر مصحوباً بترجمة فورية والقناة الثالثة تذيع أغنية هندية، والمذيعة بالقناة الأولى تواصل الخبر..... (وقد سارع مصدر مسئول بوزارة الداخلية على التأكيد بأن الجماعات الإرهابية ليست لها علاقة بالحادث وأن الوزارة تكثف مجهوداتها لكشف ملابسات الحادث).

* * *

حين عادت الإذاعة الخارجية كان أحد الفريقين سجل هدفاً، وأنا أتنشيط غيظاً ولا أعرف أى الفريقين أصبح فائزاً، المعلق التليفزيونى أحصى الأفلام التي قامت نجمة السينما ببطولتها، لم أستطع استشفاف النتيجة من وجوه جماهير الفريقين التي غطاها القلق والترقب، أطلق الحكم المتحيز صفارته، فرح لاعبو الفريقين بالنتيجة فلم أستطع التوصل إليها.

* * *

عندما جلست فى ركنى المعتاد ببيت الثقافة كان همى الأول معرفة نتيجة المباراة وكذلك هم باقى الرواد، لم أهتم كثيراً بما قال الأستاذ ميلاد مدرس الأحياء عن المؤلفات الحيولوجية التى لم تتعرض لمثل هذه الظاهرة واحتمالية وأسباب حدوثها، إلا أنه لم ينف إمكانية حدوث الظاهرة جيولوجياً نظراً لأن المؤلفات التى تكلم عنها تعتبر قديمة بالنسبة لما توصل إليه العلماء الآن من نظريات متطورة.

عبثاً كان يحاول مخرج الثقافة إقناع الممثلين بالعودة إلى بروفاتهم والانفضاض من حول مدرس الأحياء، تذكرت موعد المكالمة التى أنتظرها والقضية الهامة التى يجب أن أترافع فيها غداً، فتركت بيت الثقافة عائداً إلى البيت وانتظرت بجوار الهاتف.

★ ★ ★

ساعة الحائط دقت اثنتى عشرة دقة وفاصل موسيقى حزين، صوت المذيع الجهورى يرج الراديو فوق الطاولة ذات الأقدام الثلاثة... (وانتابت المواطنين مشاعر الذعر خوفاً من تكرار الظاهرة فى مدن أخرى، وقد قامت السلطات بإخلاء المدن

المجاورة من سكانها خوفاً من وقوع ظواهر مشابهة).

لم أعد أستطيع إعادة المحاولة بعد أن فشلت فى كتابة كلمة واحدة للقضية الهامة ويئست من الرنين الذى أنتظره فأويت إلى صقيع الفراش.

**السبت ١٦ ديسمبر**

لم أستطع مقاومة مكبر الصوت المثبت بنافذة حجرتى بالطابق الثانى وهو يدعو الناس للاجتماع والتجمع فى الساحات والمناطق الخالية للأهمية، قمت غاضباً، عندما فتحت النافذة غسلتنى شعاعات الصباح وفاجأت جارتى وهى تتثاءب بقميص نومها القرمزى من شباكها المفتوح وأحسست بضياع صباحات كثيرة منى وظللت مشدوداً إلى النافذة التى ظلت مفتوحة طيلة النهار.

عندما دقت التاسعة كنت انتهيت من إفطارى السريع وقفزت درجتى السلم وفتحت الباب الخارجى لبيتنا واجتزت الطريق الخالى سريعاً إلى المحكمة التى تأخرت عنها.

على باب المحكمة لم أجد الحارس، الطرقات على غير العادة

خالية من المتقاضين، وقاعة المحامين لا يوجد بها أحد، أيقنت أن الجلسة بدأت، بحثت عن عامل النقابة ليعطينى روباً فلم أجده، لم أجد بداً من دخول الجلسة هكذا، خوفاً أن يكون موكلى قد حوكم وقيد الحبس، ولكن حين دخلت القاعة ووجدت القاضى وحده يجلس على كرسيه، ولم أجد العسكرى والحاجب وأمين السر ووكيل النيابة تعجبت، اقتربت من القاضى الذى بدا حزينا ومهموماً، سلمت عليه وسألته:

- سيدى القاضى هل انتهت الجلسة؟

- أى جلسة يا أستاذ

- نحاسب من ونحن قريبون من حساب الله ؟؟

كنت أرتد متعجباً مما قاله القاضى والمحكمة خلفى خاوية.

★★★

فى طريق عودتى فكرت أن أمر على الساحة وأحضر الاجتماع الذى دعوا إليه، كان الباب يكتظ بالأجساد والوجوه مغبرة وصفراء كيوم الحشر، والشيخ حسن خطيب المسجد الذى كان يرفض صلاة العيدين بالساحات والخلاء التزاماً بتعليمات الأمن، يجلس على منصة كبيرة وتتراص أمامه الميكروفونات

ويتحدث عن الغضب الذي نزل على البلدة الفاسقين أهلها
وعصيانهم أوامر ربهم وإتيانهم نواهيه و... و... ويعد بالمزيد
من العقاب والعذاب والتشريد في البلاد. لم أحتمل أكثر
فانسحبت إلى بيتي.

* * *

كانت المذيعة تتحدث مع العالم الكبير، بدا غير مكترث بما
حدث واستطرد يقول «ما حدث طبيعي جداً وكان متوقعاً
المدينة في منطقة رخوة تحتها أعلى نسبة مياه جوفية في العالم
أيضاً تهالك مشروع الصرف الصحي القديم وتأخر تنفيذ
المشروع الجديد ضاعف من نسبة المياه، ولا ننسى أن المنطقة
جيولوجياً نشطة جداً ويكفي أن نعرف أن زلزال ١٢ أكتوبر ٩٢
مصدره منطقة دهشور المتاخمة للمدينة»

* * *

بات واضحاً أنه لا فائدة من الخروج بعد أن تقلصت الكثير
من علاقاتي في الآونة الأخيرة. الساعة تجاوزت الثالثة عصراً
وموجز الأنباء لم يذكر جديداً. كانت أخبار متكررة عن مسلمي
البوسنة وتجارب فرنسا النووية وفقرة طريفة عن تزاوج قطة

وفأر بحديقة حيوان موسكو.

★ ★ ★

ساعة الحائط دقت اثنتى عشرة دقة وفاصل موسيقى حزين، أتى صوت المذيع الجهورى (ووصلت إلى القاهرة بعثة علمية أمريكية لتستكشف عن قرب الظاهرة المحيرة، وتوالى وصول برقيات المواساة من الملوك والرؤساء وعواهل الدول الصديقة، وقد وصلت مساء اليوم أول أفواج المعونات...)

لا أعرف لِمَ ابتسمت ورفعت سماعة الهاتف لأطلب خطيبتى؟ لكننى وجدت الحرارة قد انقطعت منذ حين.

**الأحد ١٧ ديسمبر**

صحوت اليوم على دقات الكنائس، شاهدتهم يخرجون لحضور قداس الأحد، ووجدتنى حريصاً على استيقاف جارى حين لمحته يخرج مسرعاً وكنت أعرف أنه شماس بالكنيسة، سألته عن رأيه، أومأ على صدره بشكل الصليب وهمس بصوت مبحوح:

- غضب الرب ينزل على عبده العاصى.

ولا أعرف لِمَ استشطت غيظاً وكدت أدفع بجسده إلى الأرض؟ لكننى تذكرت أن ذلك سيؤخذ على أنه دعوة للفتنة، فانسحبت إلى الطابور الطويل أمام المخبز البلدى .

★★★

انتشرت فى البلدة شائعات عن نفاذ مخزون القمح والمعلبات وعدم وجود خضار بالأسواق فتدافع الناس وعمت الفوضى أمام المخابز والسوبر ماركت، وحين وجدت موقف السيارات خالياً من السيارات ووجدت عم حسين بائع الفاكهة يجلس أمام محله الخالى من الفاكهة سألته عن اختفاء السيارات فجأة من الشوارع والموقف فأجاب:

– يا أستاذ الكل خائف والذى استطاع الهرب هرب.

بعد معركة ظفرت برغيف خبز وواحدة من المعلبات التى لم أتعرف على نوعيتها، سارعت بالعودة إلى البيت بعد أن غامت السماء، جذبنى شيخ عجوز من ذراعى حتى التصق وجهه بوجهى وسألنى:

– النهارده إيه يا أستاذ

– الأحد

نظر إليّ وضحك حتى بانت أسنانه البنية المتكسرة وقال:

- ربما

والحقيقة أنى لست متأكداً من أن اليوم الأحد ولكني أستند فى ذلك إلى أن الأمس كان السبت وهو أمر محل شك أيضاً.

★★★

الساعة تعدت الثالثة عصراً والحكم المتحيز أطلق صفارة البداية، اللاعبون ينتشرون فى الملعب الضيق، الصفارة أسمعها كثيراً، لم يعترض أحد من لاعبى الفريقين، الجماهير سعيدة كعادتها تردد الأناشيد خلف كبيرهم الذى يرتدى القبعة الكبيرة ويمسك عوده الشهير ويلف حول رقبته مسابحه الكبيرة، لوحة الإعلانات احتلت نصف الشاشة، ثمة عطل ما فى التصوير حجب الكرة التى يلعبون بها فلم أرها ولم أعرف الفائز.

**الاثنين ١٨ ديسمبر**

السماء ظلت غائمة طوال ليلة أمس لكنها لم تمطر، فى التاسعة من مساء الأمس انقطع التيار الكهربائى عن البلدة، مع مرور الأيام اعتكف الناس فى بيوتهم خاصة بعد انتشار

الشـائعات التى تؤكد اختفاء ثلاثة أطفال وأربع نساء وشيخ ضرير وعثور الشرطة على عظام تشك فى كونها عظام آدمية.

أرسلت ابنة أختى تشترى أربع حجارة طرنز للراديو من عند البقال، لكنها عادت وأخبرتنى أنه لم يفتح بقالته.

حين فتحت النافذة كانت السماء مازالت غائمة والضوء المتسرب إلى الحجرة ضئيلاً وكانت جارتى على ما يبدو تتثاءب من نافذتها وزوجها يقسم لها أنه استيقظ ليلاً ورأى طائرة هليكوبتر تحلق فى السماء، وأنهم بالتأكيد يعرفون ما حدث، لكنها نصحته أن يدخل ويستكمل نومه.

* * *

لم أعتد الإضاءة الضعيفة، أضأت لمبة الكيروسين القديمة وفكرت أن أعيد قراءة واحدة من الروايات القديمة التى أحتفظ بها ولكننى فوجئت بطرقات متتالية على الباب، هبطت السلم وفتحت الباب، كان صديقى الذى انقطع عن زيارتى منذ حين، دخلنا إلى حجرتى، أخرج من جيوبه بعض الشموع وأضاءها، حاولت الترحيب به لكننى لم أنجح فبدت كلماتى باردة. لم ينظر لى وهو يجذب الشطرنج المهمل من وسط أكداس الكتب

والمجلات، رص القطع فى أماكنها، لم أشاركه اللعبة فظل يلعب وحده وأنا أتابع الشوارع الغائمة من النافذة.

مر وقت طويل ومازال صاحبى يلعب الدور الذى بدأه منذ جاء وزهقت من متابعة الشوارع والسماء الرمادية وتعب نظرى من لون الشموع الأصفر وأثقل سمعى النقيق والصرير والنباح واشتقت إلى سماع أصوات آدمية، أحسست بوجع يلم برأسى، هويت على الأريكة التي تحتى وربما غفوت.



قمت فزعاً على صوت التلفاز العالى ووهج لمبة الفلورسنت الأبيض، فوجدت صاحبى يجلس مهموماً أمام الرقعة التي لم يبق بها سوى الملك الأبيض والملك الأسود، ووجه المذيعة المرح يملأ الشاشة: (وكان راديو أمريكا قد صرح ليلة أمس أن القمر الصناعى قد عاد ورصد المدينة المختفية وظهرت في الصور التي التقطها وأن ثمة عطل قد أصابه تسبب فى عدم ظهورها فى المرة السابقة).

# الأحمر القانى

(قتلته، لم تكن هناك وسيلة أخرى، بقعة كبيرة من الأحمر القانى، بقعة بحجم جسد، بقعة تشبه كل بقع الدم، نفس الطعم ونفس اللون الذى يسحب الحياة منك)

كان يحمل جسده المصوص كخيال مقاته وملابس ثقيلة تصنع بالكاد تفاصيل بشرية، ويسير دائماً، رغبة لحوحة فى الانفصال، جرب كل الطرق، لابد أن طريقة ما ستنجح، فكر أن يسيرا بمحاذاة الكورنيش، أن يغافله أثناء تلصصه على حبيبين استغرقهما النهر ويلقى به إلى القاع، أقصى القاع، ساعتها لن يستطيع اللحاق به، يعرف جيداً أنه لا يجيد السباحة وحتى لو حاول آخرون إنقاذه، سيتأكد من وصوله إلى القاع، سيحرص

على حفر حفرة كبيرة وتغطيتها بالمحار، سيبحثون ويبحثون ولن يجدوه، وإن وجدوه سيكون كل شيء انتهى ولن تفلح محاولاتهم.

فكر أنه أيضاً لا يجيد السباحة وأنه لن يتركه طالما مازالت الحياة تدب فيه، الآخرون لن ينجحوا في إنقاذه، سيكون شاغلهم إنقاذه هو، وساعتها ربما استمر تلازمهما وهذه المرة تلازماً أبدياً، لا حاجة للاختيار بين الجحيم والجحيم

ربما عليه أن ينتظر بضع ساعات حتى تنام المدينة، بضع ساعات أخر يحمل فيها هذا الجسد، بضع ساعات آخر يظل أسيراً لحاجاته وبعدها يحمله ويسير كما يفعل دائماً من شارع إلى آخر، وفي بقعة معتمة وخالية من الناس والأشباح سيضعه على رصيف، وإن لم يجد رصيفاً سيتركه بلا رصيف، سيتركه ويجري هارباً، سيجري ولن يلحق به أحد، لن يسمع لتوسلاته ولن يستمع أحد لاستغاثاته.

سيجري إلى أي وجهة ولن يتوقف حتى يضيع في العتمة، وفي الصباح سيجدون الملقى وحده على رصيف أو بدون رصيف، سيجدونه على تلك الهيئة ولن يهمه أن يعرف ما سيفعلون به.

فكر وقــرر أن بضــع ســاعــات ولابد أن تنام مــدينة تركض وتجرى وتلهث منذ صباح بعيد، مدينة غطتها تجاعيد الكهولة وسقطت أسنانها، مدينة احتست كل إنتاج مصانعها من خمر معتق وفودكا حمراء وضاجعت آلاف وآلاف الداعرات، ستنام فى مكانها وستحتاج المزيد والمزيد من الوقت لتفتح عينيها على صباح جديد.

حينها ستكون الفرصة مواتية للتخلص منه إذا لم يغلبهما النوم معاً.

ساعتها كان يتلكأ فى الوصول إلى الباب، يضع المفتاح فى الباب ويغلقه خلفه، سينتبه على أزيز الباب يُفتح ويغلق ثانية، سيرتعد رعباً ويزفر فيحرك الهواء الراكد بالحجرة، يلقى بجسده المتعب إلي الوسائد ويغمض عينيه، سيسمعه يصرخ فيه:

- كان يجب أن تقتله

يضغط على كفه

- كان يجب أن تقتله

لم تكن هناك وسيلة أخرى، سينسحب دون أن يحس به إلى المطبخ ويستل سكيناً وينتظر إلى أن تغفل عيناه ويتسلل إلى

جواره، ينتظر عند حافة السرير، يخبأ السكينة تحت الوسائد المهملة حتى لا يلحظها ويتمكن من رقبته بسهولة ويطعنها طعنة فصلت الرأس عن الجسد، لن يسمع لصراخه:

- كان يجب أن تقتله.

لن يستجيب لصوته المخنوق وهو يستنجد به، سينهال بالسكين على الجسد المصوص ويمزقه قطعاً صغيرة ويدهس بقدمه الفم المخضب بالدماء، حتى يكف عن الصراخ ويتنفس بعمق، يخرج إلى الشوارع الخالية، يسير منتشياً والهواء يخترق صدره، يجرى ويرقص ويغنى دون أن يحس تعباً حتى يستعيد نفسه ويعود.

يضع المفتاح فى الباب ويتركه مفتوحاً، لن يرتعد خوفاً، يقف أمام السرير الخشبى، يتأمل البقعة الكبيرة من الأحمر القانى، بقعة بحجم جسد، بقعة تشبه كل بقع الدم، نفس الطعم ونفس اللون الذى يسحب الحياة منك، يتقدم خطوة أخرى ويتمدد فوق السرير الخشبى غارقاً فى الأحمر القانى، ولأول مرة يغلق عينيه ويموت .

# لا أعـــرفه

الشارع بطيء . .

يسير إلى ما لا نهاية، الأشجار على جانبيه - ناعسة، والحوانيت أُغلقت أبوابها . لمبات الطريق أسبلت جفونها ، غفلت المصابيح ولاذت البنايات بالصمت. النسمات الباردة تشبعت برائحة النوم. صار الشارع - آخر الليل - وحيداً، يكبت جرح قدميه النازف بغبار الطريق ويغتسل تحت أنفاس العتمة الندية.. آخر وجه قابلته كاد أن يختفي خلف حوائط الليل الأسمنتية وهو يلهث خلف عقارب الساعة التي سبقته، لحقت به، سرت معه خطوة.. بخطوة.. اصطك مفتاح بابي بكفه المفتوح، وقف أمامي، تفحص كل منا الآخر، غزني بنظرات عينيه ولم ينطق.

سألته عن الطريق إلى بيتي - اتسعت ابتسامة وجهه المألوف.. وكم كان بشعاً جانب الوجه الساخر وهو يضيع في زحمة العتمة غير مكترث بي. الشارع خال ووحيد، لا يؤنسه غير

خطواتى التعبة، كم من الوقت أنفقته في اجتياز الشارع الطويل الذى انتهى إلى شارع آخر أطول.. إلى شوارع كثيرة بنفس آلام القدمين وتجاعيد الوجه ووجع المعدة المتخمة بالنفايات.

لم يعد غيره وغيرى وحيدين.، نتوق إلى صباحات نقية تغسل جراحنا المفتوحة، وأحضان دافئة تطبق على جسدينا جدرانها الأربعة.. لكننا وحيدين نكمل طريقاً مجهولاً إلى بيتنا الذى فقدنا عنوانه. لكنه يسير وكان علىّ أن أتوقف. الشوارع كثيرة متشابهة ومن السخف أن أحاول افتراض اسم للشارع الذى أقطنه أو ترك الأمر للمصادفة وحدها.

اقتربت من البناية التى تجاورنى. عالية. شرفاتها، سوداء قاتمة طوابقها بعدد أنفاسى، بكل طابق عدد من الأبواب الموصدة، ربما كان واحد منها ينتظر مفتاحى الذى أزعجنى حكه الدائم لأصبعى.

بنايات المدينة عالية وكبيرة، لكن مهما كثرت البنايات والأبواب فإن كل بناية تسلمني إلى أخرى، وكل باب يسلمنى إلى آخر.. أما الشارع الواحد فيلقينى إلى شوارع كثيرة متشابهة.

تركت الشارع وحيداً إلى البناية الأولى.. إلى الباب الأول ومفتاحي يقترب من مكانه المعهود. لكنه وهو آخر وجه قابلته بالطريق - عاد يطرق رأسي ويصطك بمخيلتي، تستفزني ابتسامة وجهه الواسعة، سخريته من سؤالي عن العنوان.. كيف لم أعرفه أو يعرفني ونحن - في الغالب - نتقابل عدة مرات في اليوم الواحد! ، وربما نجلس مصادفة على طاولة واحدة.. نحتسي مشروباً مشتركاً وملامحه تخط معالمها في رأسي.. عينان واسعتان، جاحظتان، أنف، شفاة غليظة متكلسة، جبهة عريضة مستوية، شعر جعد يغطي أذنيه الكبيرتين وابتسامة وجهه المألوف؟!

كيف لم يعرفني وهو يسكن رأسي؟.. كيف تركني وحيداً واختفى في عتمة المدينة ؟؟!

وربما كان غائراً في سريره المهد، يتذكرني ويبتسم، يجمع حوله زوجته الجميلة وأولاده الصغار ويقص عليهم حكايتي، وتقصها الجارة إلى أخرى وتبتسم المدينة كلها.

كيف تركني وحيداً ورحل وكثيراً ما اقتسمنا طبقاً واحداً ولقمة واحدة وافترشنا أرضاً واحدة. ونمنا سوياً؟؟! كنت أنتظره

كى نعود معاً، كيف لم يعرفنى ورحل؟؟!

أقفال الأبواب بداخلها المفتاح لكنها لا تفتح.. لم يعد فى المدينة باب لم أطرقه، وبقيت الشوارع حزينة بقدمين داميتين وظهر مقوس وأشجار على الجانبين تستسلم لليل بعينين مفتوحتين.

رفضت البنايات أن تفتح أبوابها فى وجهى، لفظتنى، عدت إلى الشارع خجلاً من صدره المفتوح وراحتيه الممدودتين إلى راحتى.. سرنا سوياً رغم آلام القدم المستمرة من شارع إلى شارع، ألفيت وجهه مختبئاً خلف جذع شجرة نائمة، أطل وهمس لى:

– انتظر .. انتظر

رسمت على وجهى ابتسامة، صاحبت الشارع فى طريقه اللانهائى خطوة.. بخطوة.. ونحن وحيدان نسير مخمورين بدفقات الهواء البارد، والليل يسحب غلالة العتمة عن المدينة.

بسذاجته يلملم النهار حاجياته ويفرشها على الأرض. الحوانيت فتحت أبوابها، اكتظت الأرصفة بالسيارات، اختفت الحارات..

كتل اللحم البشرى فى طوابير طويلة تتزاحم، صرت فى زحام شارع مكدود واحداً من الوجوه الكثيرة.. ، عينان، أنف شفاه، جبهة، شعر جعد يتدلى فوق أذنين كبيرتين وابتسامة عارية. تدافعت الوجوه واحتلت أماكنها الجديدة، تقابل وجهى بوجهه، هممت أن أسأله عن الطريق إلى بيتى.. لكننى تذكرت أننى لا أعرفه ولم أقابله قط.

تركته وسرت فى الزحام وحيداً .

# الثقــب

ينقع الزيت..

الزيت الملعون في كل كتاب من كتب الشرق، تحدثت عنه السير والحكايات وحذرت من لعنته على البلاد.. لكن أحداً لا ينتبه..!

هو الآن يفرش الأرض، يغطي أشجارها وثمارها وبيوتها.

لماذا يا أشـــجـــارنا تبــدلت أوراقك وضـــاعت روائحك العطرة؟!!

كانت السفينة تشق البحر في اطمئنان، تحمل اللبن والخبز وملابس الشتاء والأدوية. الربان في غرفة القيادة يتابع حالة الموج المستقرة واثقاً وسعيداً. السمان المهاجر يحلق ويحلق أملاً في الوصول إلى موانيء دافئة..

أجهزة الرادار لم ترصد أثراً لسفن القراصنة، البحارة كانوا يغنون فرحين والربان سعيداً وواثقاً يغنى للموانىء البعيدة وطيورها العائدة.

● **على شاطئ الخليج :**

الموج كان شديداً وقاسياً، القراصنة يحتمون في غواصاتهم الكبيرة، يسكبون براميل الزيت فتفرش سطح الخليج، تشتعل الحرائق، ترتفع ألسنة اللهب، السمان العائد يشتاق إلى الدفء، يسقط صريعاً على رمال الشاطىء تنهش جسده الغربان، الطيور البعيدة تعبت من رحلتها الطويلة واشتاقت إلى الشواطىء الدافئة.

الصغير كان مختبئاً بين الصخور، يرتدى جلباباً قصيراً بدون أكمام وفردة حذاء كاوتش..

عمره تسع سنوات

خانة الاسم مطموسة عن عمد

الموج كان شديداً وقاسياً ورجل طيب من الأعراب الرحل يسير بلا هدف - هكذا كان يوحى منظره، لكنه كان يبحث عن طعام، يخبر الناس أن ابنته مريضة ويحتاج إلى نفقات علاجها،

لكن أحداً لم يعطه ديناراً أو درهماً، كان يبتسم للوجوه التى صدته ويقول لا بأس فلا توجد لدى ابنه أو زوجة!!!

السماء يغطيها دخان كثيف له سخونة فى الحلوق، بلاد كثيرة غطتها الأدخنة طوال العام، القاهرة غطتها لأيام سحب رمادية مشابهة، البسطاء يقولون إنها بسبب قش الأرز الذى حرقته الحكومة لتحرم منه الفلاحين الذين يوقدون به أفرانهم الطينية، رغم أنه لم يعد هناك أفران ولم يعد هناك خبز، وزراء البيئة أرجعوا الظاهرة لطبقة الغلاف الجوى والمرتفعات الجوية، والحكماء قالوا إنه فساء العفريت، عفريت لا شبيه له أتى إلى البلاد وسكن بحورها، ولم يعرف أحد إنه الزيت الذى غطى الأرض والبيوت والشوارع..

الأعرابى الطيب لا يجد ما يأكله لكنه يبتسم، فى مكان معتم - فقد حجبت الأدخنة مصادر الضوء - رأى الصغير الجالس عند الخليج ورأى عينيه الحزينتين كعينى طائر حمام جريح.

حاول أن يتكلم معه، لكنه لم يجبه، أخبره إن ابنته مريضة وتحتاج إلى كوب لبن وغطاء وأدوية لكنه لم يرد .

أخبره أنه وحيد ولا ابنة له وابتسم لكنه لم يشاركه

الابتسامة، حاول أن يقلد بهلواناً رآه قديماً حينما كان طفلاً، تذكر كل النكات التى أضحكته وقالها له، حكى عن العفاريت التى رآها وأُمنا الغولة وأُم رِجل مسلوخة لكنه كأنه لم ير ولم يسمع..

فكر إنه ربما يكون..؟!

جلس جانبه فى مكان معتم، رأى الموج شديداً وقاسياً وألسنة اللهب تتأجج وتشوى السمان العائد، سمع استغاثات كثيرة من الخليج لكنه تذكر أن لا ابنة له ولا زوجة، تمدد فوق الرمل الأسود وضحك بشدة.

● **ملحق عن سفينة تغرق:**

كانت السفينة تخص طفلاً صغيراً وتحمل الكثير من الأحلام الجميلة والبحارة فرحين بعودتهم والربان فى غرفة القيادة يغنى للموانىء البعيدة وطيورها العائدة، لكن أجهزة الرادار الصغيرة صرخت والبحارة الطيبون ارتجفوا والقراصنة ظهروا فى كل مكان، فأراد الربان أن يضللهم وينقذ سفينته فألقى إليهم ببراميل الزيت - الزيت الملعون الذى خبأه عن أعين البحارة المساكين، لكن القراصنة ظلوا يقتربون، ألقى إليهم ببحارته

الطيبون لكنهم لم يكتفوا، قرر في النهاية أن يثقب السفينة لتغرق قبل أن تصل إلى القراصنة.

كان البحارة الطيبون يستنجدون، والأعرابي الطيب يضحك بشدة ويمد كفه للناس ويقول: ابنتي مريضة وليس معي تكاليف علاجها والناس لا يجدون وقتاً ليسمعون.

هامش أخير:

طفل صغير كان يملك سفينة غرقت

يرتدي جلباباً قصيراً بدون أكمام وفردة حذاء كاوتش

العمر تسع سنوات

الملامح بها الكثير من الجروح والندبات

والوجه شاحب ومحترق

خانة الاسم مطموسة عن عمد

من يجده لا يتصل بأحد

ولا يشغل باله كثيراً.

# طائر أخضر صغير

صبارة وحيدة على الإفريز بجوارها قنديل قديم، شيش بلونه الرمادى الثقيل يغطيه تراب ناعم، قشور جيريه وتشققات عند الحواف. لم تكن حجرتها كباقى حجرات بيتنا، حجرتها واسعة وكبيرة يسكنها هدوء رائق كأنها بعيدة عن ضجيج العالم حولها، وتحتشد بدفء حقيقى.. وحين نفتح نافذتها تتسلل شعاعات الشمس الذهبية ونحس نسمة باردة تنسل إلى داخلنا وتربت على مشاعرنا الصغيرة.

أمى تقول إن حجرة جدتى كغيرها من حجرات بيتنا لكنها لا تزحمها بالكراكيب الصغيرة.

سريرها بناموسيته التى تشبه سحابة بيضاء كبيرة، إلى جواره دولاب صغير بدرج واحد فوقه صورة لأبى بزيه الكاكى

وملامحه التي تشى بصرامة وطيبة، علب صغيرة لأدويتها وراديو صغير، فى الناحية الأخرى يستند إلى الجدار دولاب خشبى قديم تملؤه الكتب والمجلات وبأحد أرفف تنحشر كومة من ملابسها.

★★★

دائماً تجلس وحيدة فى حجرتها، لا تخرج منها إلا لتتوضأ وتعود ومعها دورق ماء لتسقى صبارتها. سعاد تقول إنها كانت تجمعهم تحت شمس سطحنا وتحكى حكاياتها الجميلة، حتى جاراتنا كن يتركن حالهن ويبقين منصتات وعندما تراهن أمى تتعجب منهن، يقلن:

– حكايتها جميلة ولسانها حلو .

هذه الأيام لا أتذكرها، أمى تقول إنها كانت حامل فى... أبوك كان فى الجبهة وجدتك تأخذ أخوتك وتصعد بهم إلى السطح وتقول:

– سننتظر أباهم حتى يعود

عندما نزهق من واجباتنا ونحس ضيقاً نهرع إلى حجرتها، تتلقفنا فى حضنها، تسألنا عن مدرستنا وأحوالنا، تعبث فى

خصلات شعرى بكفها ونسمعها تدندن بأغان لا نسمعها إلا منها، يسرى غناؤها فى عروقنا، تفتح درج دولابها الصغير، تخرج الحلوى وتعطيها لنا، تقول:

- أبوكم منذ صغره يحب الحلوى

يأتى ليبحث عنها فى درجى وأحرص أن يجدها

سعاد التى أصبحت تشبه أمى كثيراً تحب أن تسمع حكاياتها عن أبى، تسرح جدتى ببصرها إلى صبارتها وتقول:

- لم يكن أحد مثل والدكم......

.................................

وتظل تحكى، تغلبنى النعاس، أصحو على صوت أمى ..

- اتركوا جدتكم لتستريح

أرى ملامحها تشى بألم حقيقى، يذهب أخوتى وأتشبث فى حضنها، تنادينى أمى لكنها تنهرها فتتركنى وحدى معها، تضمنى إلى صدرها وأسمعها تهمس بأغانيها التى لا أسمعها إلا منها.

........................

كانت لا تعرف القراءة..

لكننا نراها تفتح دولابها، تدحرج نظراتها ناحية الكتب وتتلمس حوافها بأصابعها، تخرج أحدها، تتشممه، كأن به أريجا يبعث الحياة فيها وتضمه إلى صدرها وحين نسألها:

- هل تقرئين يا جدتى

تبتسم وتقول : إنها تركت المدرسة فى ثالثة ابتدائى وتزوجت من جدنا الله يرحمه، على أيامنا لم تكن البنات يكملن تعليمهن، كنت أقرأ الكلمات الكبيرة فى جرائد أبيكم، أتهجاها حرفاً.. حرفاً وأبوكم يضحك علىّ، لكنه أصر أن يعلمنى.. وتقول :

- هاتوا ورقة وقلم

تجرى صباح وتحضر كراستها وقلمها، تمسك جدتى بالقلم ونراه يرتعش بين أصابعها ونرى اسم أبينا منقوشاً فوق الصفحة البيضاء ودموعا غزيرة تبللها.

......................

أمى تقول : إنها كُتُب أبى بعد أن استشهد فى الحرب، جمعتها، وضعت ملابسها فى رف ورصت الكتب واحتفظت بها فى دولابها، حتى عندما تأخذ «سعاد» كتابا لتقرأه لا تنام جدتى إلا بعد أن تطمئن أنها أعادته.

وحين تنتعش الحكايات على لسانها ويفارقها الصمت تقول:
إن أبى كان يقرأ كثيراً، من صغره يحب الكتب وينفق مصروفه
عليها، لم يكن مثل باقى أصحابه كان يقول:

- الكتب تعوضك عن كل شىء

لم يخرج مرة إلا وعاد ومعه كتاب جديد، حتى ساعة الحرب
عندما كان يأتى فى أجازة وأجهز طعاما ليأخذه معه لأصحابه
وأضعه فى الشنطة أجده يحمل كتبا معه، وحين أقول له:

- يا ابنى الكتب حتى فى الحرب؟!!

يضحك ويقول:

- أقرأها وقت الراحة

يسكت لحظة وأسمعه وكأنه يكلم نفسه

- ليتنا قرأناها جيداً

ويعود ليقبل يدى ويرتمى فى حضنى ويتركنا إلى الجبهة .

...............

«سعاد» تقول إن جدتى وصبارتها تتشابهان، لهما نفس
الندوب الغائرة والحزن الشفيف، أمى تقول إن جدتى هرمت ولم
تعد تستطيع الذهاب لزيارة قبر أبيكم، أحضرت هذه الصبارة

ووضعتها على إفريز نافذتها.

كنا نراها تعتنى بها وترويها، نطل عليها، نرى شفتيها تتحركان وكأنها تتكلم مع أحد لكننا لا نسمعها ولا نجد غير صبارتها.

بين حين وآخر كنا نراها تلقى أحزانها وترتدى فرحتها، تفتح بابها وتنادى علينا فى لهفة، نترك حاجتنا ونهرع إليها، تشير لنا فنبقى فى أماكننا صامتين، وتشير ناحية طائر أخضر صغير بجناحين أزرقين يحوم حول صبارتها وتقول:

- روح أبيكم

نرى الدموع تتراكم فى عينى أمنا، تتركنا إلى حجرتها صامتة ومن بعيد نسمع أنيناً مكتوماً، «سعاد» تقول:

– لحظات الوجع تظل باقية فى النفس

كنا نرى الطائر الصغير يدخل حجرتها ويظل يحوم ويرفرف بجناحيه الصغيرين فوق سريرها ودولابها الخشبى القديم وحول وجهها، وحين يتركنا نرى الدموع تسقط من عينيها ونسمع أنينها الممتد.

..........

منذ ماتت جدتى ونحن ننتظر هذا الطائر الصغير..

نفتح شيش نافذتها الرمادى، تفاجئنا صبارتها التي أصابها العطش وكساها التراب الناعم بنظرة قاسية نزيحه بأكفنا ونرويها، لكنها كانت تذبل...

نجلس على سرير جدتى.. صورة أبى تلح على رأسى ولا أعرف سبباً لإحساسى الشديد بفقده، تحكى سعاد ما حفظته عن جدتنا من حكايات حتى تتعب، نستلقى علي ظهورنا ونراقب السحابة البيضاء فوق سرير جدتى، نخرج الكتب القديمة ونقلب صفحاتها التي اصفرت ونشم رائحتها العتيقة، ونظل ننتظر طائرنا الصغير.

## نصف قلب فضى

طريق طويل من الاستاد إلى كازينو ماريونا

كورنيش وولد وبنت وحيدان هناك فوق الكوبرى الموصل لبنى سويف الجديدة، نيل رحيب لكنه وحيد رغم الأحبة المتراصين على الكورنيش وأمام الأسياخ الحديدية التى تفصله عنهم وعن باعة الترمس وعرباتهم الصغيرة..

استاد ومفارق طرق وحديقة عامة، بيوت قديمة بطلاء أبيض جديد، مشفى أميرى وقسم شرطة وكشك سجائر وكابينة تليفون.. بوابة تحت شجرة صفصاف مع نهاية الكورنيش وخمس درجات سلالم وطريق صغير يفرق بين أحواض الزهور تغطيه سجادة محلاة بزركشات بنية داكنة وطاولة عند نهايتها.

نيل هادئ رقراق وإضاءة خافتة وكرسيان خاليان بجوار الطاولة..

فى نفس المكان جلس ،

تحسس بأصابعه نصف القلب الفضى ووخزه ألم، بدا كأنه يستجلى طريقاً إلى ذاكرته، زهرة بنفسيجة اللون سقطت أمامه على الطاولة، تابع بعينيه الأغصان والأفرع الصغيرة تصعد وتتشبث بالحوامل الخشبية حتى غطت المكان، لمح على الأرضية أزهاراً كثيرة سقطت، ذبلت وتبدل لونها..

حين رآها قادمة من بعيد أشعل سيجارة، لم يتذكر سبب افتراقهما فى المرة الأولى رغم محاولاته، عام كامل عاشه بعيداً عنها، وحيداً يتلمس رائحتها فى بقايا صغيرة يحتفظ بها فى أدراجه ويعاوده أسى، دون أن يدرى أدار قرص الهاتف وطلبها، حدثها عن أشيائهما التقليدية كأن عاماً كاملاً لم يسقط من تاريخيهما، جملة قصيرة نطق بها

- أشتاق إليك

بعدها عاد كل شىء إلى طبيعته حتى كان ذلك اليوم..

جلسا فى المكان نفسه، أحضر النادل كوبين من عصير البرتقال وانصرف، أمسك حقيبتها الجلدية وعبث بمحتوياتها، أخرج نقودها أمامه على الطاولة

- كل هذه فلوس؟!!

- راتب الشهر كله..

- بعد يومين لن تجد مليماً واحداً

ضحكا...

مرآتها الصغيرة، أصبع الروج والمسكرة، بطاقتها الشخصية وكيس مناديل ورقية معطرة....، نوتة تليفونات

- ...............؟!

- أصحابى وزملائى في العمل

مرت عيناه سريعاً على الأسماء، لمح اسمه فى الصفحة الأولى، خامره شعور بالانتشاء، بكفه لامس أصابعها، طائر صغير غرد فوقها وطار، عاد ليتصفح الأسماء دون أن يتبينها جيداً، عند الاسم المخطوط بقلم أحمر تبدلت مسحة السعادة فى عينيه، توقف وسألها:

- من أيمن هذا؟؟؟!

- أيمن؟!!!!

- أه.. كان زميلاً فى الشركة التي تركتها

أعاد الأشياء إلى مكانها فى الحقيبة وأشعل سيجارة، تابع

الأغصان والأفرع الضعيفة وهى تتسلق وتمتد كأحبال صغيرة حتى تصل عند الباب وتتدلى..

همست باستحياء كأنها تحادث آخراً تعرفه لأول مرة :

- لِمَ تسكت هكذا؟

- ابداً.

أزهار بنفسجية كثيرة سقطت عندما هبت نسمة باردة، النيل إلى جوارهما يسرى صامتاً، حاول أن يتكلم فى أى شىء، سألها عن أحوال العمل، والدتها، والدها، أختها التى تزوجت وسافرت مع زوجها.. بين حين وآخر كان يؤكد لها إنه يحبها كما لن يحبها أحد، هى كل حياته وبدونها لا يستطيع الحياة.

حين خلا إلى نفسه أشعل سيجارة وسيجارة، مسح بكفيه وجهه، ظن أن دموعاً تتحجر بعينيه، أغمضهما وأطبق عليهما بكفه.

بعد أسابيع قليلة من عام كامل قضاه وحيداً حادثته فى التليفون، يتذكر تلك المكالمة جيداً.

- . .. .. . ...

- لم أنسك لحظة واحدة

- ..........

- كنت أقول لنفسى لن أرتبط برجل آخر مهما حدث .

- .........

- حتى نوتة التليفون

- ستجد اسمك الوحيد بخط أحمر .

أخرج ألبوم الصور التى يحتفظ بها، حاول تلمس رائحتها فى البقايا الصغيرة، استعاد كل الذكريات عدا سبب افتراقهما فى المرة الأولى.. حين اقتربت منه وجلست إلى جواره فى الكرسى الآخر ضغط على نصف القلب الفضى بين كفه ودسه فى جيبه.

- آسفة على التأخير

النادل أحضر كوبين من عصير البرتقال وانصرف، بصعوبة نطق كلمة أو أكثر لكنها لم تسمعه جيداً..

- قلت شيئاً؟!!!

- أبداً.. ولا حاجة

- انت أخبارك...؟

- ..........

- كالعادة ...

امتد صمت ثقيل بينهما، بين حين وآخر كانت تخبأ عينيها بكفها، بينما ينشغل فى إشعال سيجارة جديدة وتتساقط زهرة..

. عيناك متعبة؟؟!!

- يمكن أن تكون الإضاءة ..

يداه تصيبهما رعشة خفيفة، أخفاها بوضع السيجارة أمامه بالمطفأة.. جمعت عدة زهرات صغيرة بين أصابعها محاولة إعادة التفتح لهن..

- هل مازلت تحبيننى مثل زمان؟

- طبعاً وأكثر من الأول

- وأيمن ؟؟!!!!!!!

- أيمن من ؟؟

موجات صغيرة للنهر خدشت السكون حولهما، ظلت تؤكد إنه مجرد زميل فى الشركة التي تركتها.. ولماذا أيمن بالذات؟؟ قالت إنه يحبها ويريد أن يتأكد أنها لم تحب غيره، سنة كاملة فصلتهما، قالت : إن الزمن مهما طال لا يغير مشاعرها نحوه، لم يصدق كلامهما، اعتبره مبالغة أو مجرد كلام يردده الأحبة،

هو نفسه أقام أكثر من علاقة فى هذا العام وإن لم تستمر واحدة منها، حتى لا يبدو سخيفاً قال:

- أنا متأكد

- أنا أيضاً مشاعرى لم تتغير للحظة..

مرات كثيرة تقابلا فى نفس المكان، فى كثير منها تركته وهى تبكى، يعرف إنه ربما يكون ظالماً، لكنها قالت إن اسمه الوحيد الذى تكتبه بالخط الأحمر، قطعت صمتهما الذى امتد وقالت:

-لازم نصل إلى حل

صمت لحظة وقال:

- حتى لو كان بينكما شىء..

- سأغفره لك

............

- المهم أن أسمع الحقيقة منك

دموعها كانت غزيرة، الأزهار البنفسجية غطت الطاولة أمامهما، فتحت حقيبتها وأخرجت شيئاً صغيراً، وضعته أمامه وانسحبت.

أنينها شق السكون وابتعد..

تسحب بعينيه فوق الطاولة إلى نصف القلب الفضي، تحسس النصف الآخر في جيبه، ضغطه بين أصابعه ومع الأزهار البنفسجية كانت تسقط حبات مطر صيفي.

# رنــين

أعطى للمـأذون بطاقتين وثلاثمائة جنيه وورقة بها الموعد والمكان، وسمعه يقول مبروك وانصرف.

رنين الهاتف كان طويلاً وممتداً وبه أسى ويده كانت بطيئة تمتد فى هدوء إلى السماعة، أمه كانت تحمل كومه من الغسيل وتصعد إلى السطح.

- ألو .....

- .....

- ألووو .....

معقول أن تكون هى، فى ساعات خصامهما كان يطلبها ولا يتكلم، تثرثر كثيراً، تقول إنها تعرف أنه هو فلماذا لا يتكلم، تظل منصتة إلى صمته القاسى، تحكى له الكثير من مشاكلها وتنتظر

أن يرد عليها.

نفس الصمت القاسى، لا يقوى أن يقول لها إنه يعرفها، يبادلها نفس الصمت، يسمع أمه تحادث جارتها :

– أقسمت لهم إن تركناه لن يتزوج

ينتظر أن يعود إليها مرة أخرى.

يضع السماعة ببطء، يمسح الغبار الكثيف عن كتبه، يمسك رائعة فيكتور هوجو : ملائكة بين لهيب النيران، ترجمة العنوان غير دقيقة لكنه يعجبه، قاسية رحى الحرب يا هوجو، أوراق الكتاب اصفرت، أمه تؤكد لجارتها أنها لم تتركه إلا بعد أن وافق، هذه المرة لم يحاول أن يطلبها ويستمع إلى حكايتها، آخر مرة رآها أيقن أنه لقاء أخير، مارس طقوساً جنائزية، أشعل علبتى تبغ حتى أغمى عليه، انتهز وجوده وحيداً وبكى، راجع كل سنواتهما السابقة فى مخيلته، أحس سكيناً حاداً يرشق صدره، هوجو المسكين كان يظنها الحرب والسلطة التي فرقت بين الأصحاب، هوجو المسكين أول من جعله يبكى.

منذ آخر لقاء بينهما لم يحاول البكاء رغم كل الشجن الذى احتبس فى حلقه، أقسم ألا يذرف دمعة واحدة، الغبار الكثيف

هاجم حلقه فسعل، شاهد فأراً صغيراً يختبئ فى تجويف الجدار، فى ركن قصى بالحجرة أسند ظهره إلى الحائط وأمسك قدميه وخبأ رأسه بينهما، تصنع عدم سماعه لأمه وهى تهبط من فوق السطح ..

- ربنا عوض صبرك خيراً..

رنين الهاتف مرة أخرى أفزعه، أسرع إلى السماعة ورفعها، حين وجد أخيه يتحدث إليه، سأله إن كان اتصل منذ قليل، أخبره أنه اتصل ليتأكد من الموعد، وضع السماعة، عاد يحاصر رأسه بين قدميه وحاول البكاء .

## خزائن ملأى بالوحوش

كانت الفرحة رائقة والأحلام ملاءات دافئة تحتضن وليدنا قبل أن تتساقط علينا هنات الخريف وتترمد ملامحنا.

لم يبق غيره باخضرار صاف، نلتف حوله كسعفات نخيل تحوط على طلعها، أمسكت الداية بقدميه فتدلى رأسه، فوقنا، نملأ عيوننا منه غير مصدقين مولده السعيد، لانصدق لحظتنا ونخاف أن تفلت منا كما أفلتت أحلام كثيرة، ترجرج الداية جسده الصغير بين يديها وعيناها مغرورقتان بأحلام وعطايا مولود لن يأتي كل يوم.

كان يحس ثقل جسده الصغير وبرودة تنشب أظفارها فيه وفخاخا تلقى شباكها عليها وهو يستعد للنظرة الأولى على هذا العالم، بصعوبة أزاح لزوجة تشبثت بأهداب عينيه، وتخلص من

غاشية صاحبته منذ مولده وفتح عينيه على رؤوسنا التى تطل
كوحوش رمادية.

أفزعه منظرنا، كان يظن العالم نورا محضا أو بياضا مكتملا، لكنه رآنا بقعا سوداء تنتشر على الأرض، لم يبك كغيره من المواليد، توارت أحلامنا بعيدا وأطلت هواجسنا وقبضت قلوبنا، أنقذتنا الداية، ولسعته بكفها على مؤخرته فبكى.

قلبته فأصبحت رأسه مكان قدميه وقدماه مكان رأسه، عاوده صمت مفزع وتدافعت إلى رأسه أفكار مقلقة وهو يرى العالم من حواليه ينقلب دون سبب واضح، وثرثرتنا تصب صخبا مدويا فى أذنيه، اعتراه امتعاض فبعد بوجهه عنا، بعد حتى صرنا لانراه، أرضعته أمهاتنا توسلاتنا، أحس سرسوباً من الدفء فى عيوننا، فعاد يثبت عينيه المتحجرتين علينا ودعكت الداية جسده بأصابعها الغليظة، تركت بعض الزرقة على جسده، مدت يديها ولفته بملاءة تغطى جسده، حرك قدميه وأفلت منها، عادت وزمت جسده الصغير بالملاءة وربطتها حوله، فعجز عن الحركة والامتعاض، أغلق عينيه وبكى.

وصرخ..

---

ولأننا انتظرناه طويلاً تحملنا صراخه الذى خمش قلوبنا، فانسالت خيوط رفيعة من الألم إلى الأفئدة، مزجناها بفرحتنا وانتظرنا حتى يفتح صغيرنا خزائنه ويخرج أحلامنا تعلق فوق رؤوسنا.

★★★

وكان الصبى متوقدا دوما بالرغبة فى الانطلاق والتحرر، منذ تعلم الحبو خرج إلى الشارع يتعلم اللعب بالكرة والاستغماية والجرى فى الشوارع وضرب العصى واللعب مع العيال بالألغاز والأراجيح حتى يعانق السماء.

لكننا علمناه الصيد والقنص واصطياد العصافير ولعبة الحبل. علمناه أن يلعب وحيدا حتى يبعد عن الشارع وعياله بكل شرورهم ومعاصيهم وفتنهم، علمناه كيف يلعب الورق وكيف يرص العساكر والأحصنة والأفيال ولعبنا معه، وكلما خسر علمناه أن اللاعب الحقيقى يفوز دائما وحين لم يعد يخسر بدا حزينا يسأل عن أصحابه وأقرانه وألعابهم المسلية، انزلق خوفنا أمامنا وأخبرناه أن للشارع وجها مخيفا وله من العيال ألف يقتلون كل صبى يظهر بينهم حتى لا يخرج فيهم نبى، فإن نجا

من مؤامراتهم فلن ينجو من لعبهم وهزلهم وهمجيتهم التى يتساقط بسببها أنبياؤهم فيصيرون مسخا للأباليس بوجوههم البشعة وأجسادهم الشائهة وأنت صبينا الذى حلمنا به ونحتاج قوته وعافيته لسلامتنا.

كان يرقبهم من نوافذه بأسى عميق ويغالبه حزن أخرس، تبدو معه الأشياء مجرد أصنام وتماثيل وهم يجرون ويهرولون ويعانقون السماء ويحلقون.

وكنا نرى عينيه زائغتين ترقبان تفاصيل الشارع والأولاد والبنات يلعبون عريس وعروسه والحجلة، ففكرنا أن نمنع عنه ما يفعله أولاد الشارع من طيش صبيانى يصل إلى قلة الأدب والفسق والمجون وأن تمنعه جدراننا عما يقولون من بذاءات، وأسدلنا أمامه ستائر كبيرة يرى منها العالم كما نراه ويحسه كما نحسه وأعطيناه كتبا ومراجع فى العلوم والآداب والاجتماع حتى يجاري فصاحتنا وفقهناه فى الدين حتى يكون إمامنا الذى يرشدنا إلى عصمة أمرنا ويعيدنا إلى رشدنا، علمناه ليكون قائداً لنا وحلما يتحقق على أيدينا.

تعلم أن يعيش كما أردنا له، يلعب ما نلعب، ويرى ما نرى،

ويقرأ ما نقرأ، لكنه كان يبدو حزينا، ثقيل الوجه، متصلب القسمات، ذا عينين منطفئتين وداخله يتفجر أسى عميقاً، ولأننا انتظرناه طويلا كنا نرقب لحظاتنا تنمو وتكبر وتفرش تعريشة من الوقت فوقنا، وننتظر خزائنه الملأى بالأحلام.

★★★

كان الفتى مولعاً بها، يقف تحت شباكها ويغنى مع نايه الحزين فيقطع بصوته الشجى أفئدتنا وينشدها القصائد فتلين قلوبنا، ورأينا روحه تفارقه كلما فارقها، وتظل تحوم حولها ورأينا جسده يجول فى الجبال والوديان بين البساتين يبحث عن زهرة تليق بها ويضعها تحت قدميها، تمد كفها إليه، يلامس أناملها بشفتيه ويبكى، تلسعنا دموعنا ونخاف عليه من قسوة الهوى وتبدل حال المحبين، وقد رأيناه وقد جف ماؤه وصار كعود بوص ناشف وخفنا على أنفسنا بعد أن لسعتنا دموعنا وانزلقت قسوتنا وراءنا فمنعناه عنها وأخبرناه أن البكاء للنساء وأن عين الرجال خلقت لتشتهى وتتمتع بأجسادهن وعيونهن وشفاههن وشعورهن وقدودهن وخصورهن، وأن دموعنا عورة لانكشفها لأنفسنا، وأحضرنا له نساءنا ليطارحهن الهوى ويكن طوع أمره

ونهيه ويجبن له الوديان والجبال بحثا بين البساتين عن أجمل زهرة ويضعونها تحت قدميه.

علمناه كيف يكون الهوى والعشق والاشتهاء، لكنه فاجأنا بصورتها تملأ جدراننا فبنينا جدرانا أمام جدرانه ومنعنا صورتها عنه ورأيناه يحلق فى جدراننا الخالية من صورتها، يعد قوالبها الأسمنتية وهى تتراص فوق بعضها، شقوقها وهى تبكر ويزداد تجويفها، ويرقب خيوطا متوازية تمتد من عينيه إليها، خيوطا تبدأ من عينيه وتمتد إلى كل الجدران، يسير معها ربما تنتهى إلى طريق، لكنها تنقله من جدار إلى جدار إلى سقف، يسقط فوقه ظلاما مصمتا ثقيلا.

كانت الجدران تتسع وتضيق وهو فى نقطة ثابتة تدور حولها كل الجدران، مع الوقت تخلص من ثقل كل هذه الجدران وألقاها خلفه واكتفى بنقطة صغيرة على جدار وعلق صورتها فوقها وظل مشدودا إليها، لا يرانا ولا يرى جدراننا ونساءنا وشهواتنا، كنا نرى صورتها لا تفارقه برغم كل الجدران وسمعنا نايه يعزف فتهتز جروحنا وصوته يجرش ثلوج مشاعرنا، فأحنينا رؤوسنا خجلا من فشلنا،

ولأننا نحبه كما لم يحبه أحد، لأنه حلمنا الذى عشنا له ولأننا كنا نراه يذبل ويخبو ويتلاشى أغلقنا عينيه وشددناه بعيدا عن نقطته فلم يعد يرى صورتها، وبدا أمامنا كحشرة كبيرة عمياء مقلوبة على ظهرها تنتحب لكن لا تفارقها النشوة.

***

كنا نحرسه بعيوننا وحواسنا وأجسادنا، وحين اكتمل تمام تكوينه وحان أوان خروجه كان كحشرة ميتة يرقد بين جدراننا العالية، أمسكنا معاولنا وأزحنا جدراننا فهبت رياح هزتنا وجرفت أمتعتنا وحاجاتنا، تشبثنا بفرحة اكتمال حلمنا ورأيناه أمامنا كنقطة مضيئة ترتعش، تتقاذفها الريح بيننا، توجع بوهجها عيوننا حتى اختفت وعدنا ورأيناها تلعب وتلهو وتحلق وحدها فى السماء ولم يتبق لنا إلا خزائن كبيرة ترقد فيها أحلامنا، توضأنا بصبرنا ودهسنا خوفنا الذى لازمنا وبحثنا عن مفاتيحها.

## الفوضى.. دمى

تملصت منهم، أهرب، صرت المزاليج والأقفال..

تنتصب ساعة الميدان فى وجهى، كائن الوقت يتقازم وأنا أفر إلى الخطوات، يسحقنى اللهاث، تثقب أغشيتى الريح، يطالعنى وجهه، نظرات عينيه تسرق لهفتى.

- إلى أين؟

دائما ما نبحث عن الإجابات، الاتجاهات الواضحة وهم حفرته خطواتنا، الإسفلت يتمدد تحت حذائى المهترىء، الرمال بحر من السراب تظلله أمنيات الخروج.

- لم بدأت هذا الطريق؟

أقف أحدق فى طلاء وجهه القاتم وأواصل الخطى، يلمحنى أبى ألهو بمراكبى الورقية.

- لن تصبح رجلا.

النظام أساس النجاح وأنت ما زلت طفلا فوضاويا.

الأفكار تحاصره، كل شيء خارج عن رتابة الدورة اليومية، النهر لوحة سريالية شديدة التعقيد، الطوفان يقتلع الثوابت، الطمي يغطي ملامح التشكيل، الشارع كعادته طفولي المزاج.

عند مفترق الطرق يقفون مرتبكين، الزمن يركب مهره وينطلق، السيارات، عواء عربة الاستشفاء والطفل التائه يمر بين العجلات، رجل المرور ساعة الذروة يحتسي زجاجة مياه باردة وينفث دخان انتظاره..

- لا تكن همجياً.

صاحت البنت عندما تسللت يدى إلى الصدر النافر، تركتنى وحيداً وكائن الوقت يتقازم، أستسلم لنعاس الليل، أسرى فيه، المرأة الفوضاوية تمنح جسدى حرية البوح، أستنشق ولعى بالحياة وأخرج إلى الشارع.

بقايا مخلفات المدينة ترقد تحت قدمى، أكياس البلاستيك السوداء تجثم فوق أنفاسى، جحافل النمل تتغذى على أطرافى، مخلفات عمر طويل وغمامات انتظار، تغوص فى أوردتى حمى

١

الفوضى، يغسلنى الهواء البارد المبلول، صدرى المفتوح يحتضن الكرة الأرضية ويغلق رئتيه المريضتين على النفايات.

أسعل، يسقط المطر غزيرا، أنتشى كأرنب جبلى يلهو فى البراح، أختبىء تحت ظلى وأخرج الورقة المبلولة بالدمع.

(الحب لعبة لها قوانينها)

ينعى المطر، غبش الصباحات يطارد العتمة، أخرج من الشرنقة وأواصل الخطى إلى البراح، يتبعنى صوته المبحوح:

– ستظل هوائيا، لن تتحمل يوما مسئولية

صوتهم يشق صدرى :

– نحن جيل الفوضى.. هلم إلينا .

بعيداً، ككل المجهولات يخطف وجهى، أهرب، أتخطى المسافات/ المبانى/ المزارع/ الرمال. والبنت فى انتظاري على قارعة الطريق، تشير لى، أقترب، أضمها إلى صدرى العطش، تتعانق شفاهنا اليابسة، يتفجر نهر من اللذة، أعتصر جسدها الطرى، الحبال تمسك بها، تجرها إليهم، تحاول الإمساك بى، أفلت منها، تصرخ:

– لا تكن همجياً.

أسقط على الأرض، تنتصب الحبال فى وجهى وتحاول اللحاق بى، أعدو، يأتى صوتهم:

- نحن جيل الفوضى هلم إلينا .

أبحث عنهم فى فضاءات الزرقة والسماوية، شروخ الإسفلت تشد خطواتى، الشباك تحاصرنى، الاتجاهات المتشابهة تقسم وجهى آلافا من الوجوه التعسة، عرائس الماريونيت تلتف حولى، كل الذين أعرفهم يرتدون أقنعتهم، يتبادلون نفس القناع.

- النظام أساس الحياة، الحب لعبة لها قوانينها.

صوتهم يقترب :

- نحن جيل الفوضى.. هلم إلينا

أحطم المزاليج، أتملص من الخيوط، تتشكل أفاع تنفث فى وجهى، أعدو، تخور قدمى، أحس بهم قريبين.

- أنت هنا.. هنا عالمك

نحن جيل الفوضى.. هلم إلينا.

الظمأ يقتلنى، والأرض تحت قدمى تنز عرقا لا يروى

- لاتخف ، أنت هنا

أياديهم تحاول نهشى، أقنعتهم، تعاشيق حبالهم، صوت

البعيدين يدنو:

- تعال إلينا .. نحن جيل الفوضى

أنبش الرمل والصخر، تغطينى بغبارها، تطفو الحجارة الصغيرة، أضعها تحت لسانى وألقيها فى المدى، يعاودنى الانتعاش، نهر اللذة يروى عطشى، تطفو الحجارة، تتفتح نباتات وليدة، أرطب لسانى وألقيها فى المدى.

- ما زلت تحب اللعب فى الرمال.

أطوح الحجارة بعيداً، تتساقط عرائس الماريونيت فوق الإسفلت، ترمقنى البنت مستسلمة والدمى تواصل السقوط.

# الفهـــرس

# شتاء قارس

أحمد طوسون

هذا الولد يشبهنى

ليس ولدى

وليس ولد امرأة أعرفها

ورغم ذلك كلما رآنى لهث خلفى ونادانى:

يا أبى